الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٥ الثلاثاء ٢٦ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العدد

بعد إلغاء الدولية الشيوعية

التقرب بين روسيا والدول الغربية

كان إلغاء « الدولية الشيوعية » التي تم نهائيا في العاشر من يونيه الجاري ، إجراء حاسما عميق الأثر في شئون روسيا السوفيتية ، فقد لعبت هذه « الدولية » الشهيرة دورا من أعظم الأدوار في تكييف السياسة الروسية في العشرين عاما الأخيرة ، وكان توجيها الظاهر أحيانا ، والخفي في معظم الأحيان ، أكبر الأثر في سير كثير من الأحداث والانقلابات الدولية المعاصرة ، وكانت جهودها طيلة هذه الفترة تثير كثيرا من ضروب التوجس والقلق في معظم الدول والحكومات الغربية ؛ وإذن فلا عجب أن يكون لإلغائها الفجائي أعمق وقع في المحافل الدولية ، وأن ترى فيه مجموعة الأمم الديمقراطية المتحالفة مع روسيا ، خطوة موفقة من جانب الكرملين ؛ وأن تستقبلها بمنتهى الارتياح والرضا .

والآن وقد أصبحت « الدولية الشيوعية » في ذمة التاريخ ، فإنه يجدر بنا أن نستعرض طرفا من تاريخها ونظمها ، وغاياتها ، ثم الآثار الخطيرة التي تترتب على إلغائها .

كانت الدولية الشيوعية ، ثالثة الهيئات الدولية التي أسست لتوحيد حركات العمال في مختلف الأمم ، وإدماجها في جبهة كفاح موحدة ؛ وكانت نواة « الدولية » جماعة العمل الدولية التي قام كارل ماركس إمام الاشتراكية وزميله فردريش انجلز على إنشائها ، واجتمعت لأول مرة في لندن في سنة ١٨٦٤ ، واستمرت تعقد اجتماعاتها الدورية حتى سنة ١٨٧٢ ، وهذه هي الدولية ، أو الدولية الاشتراكية الأولى ؛ ومع أنها لم تحقق كل ما علق على إنشائها من الآمال ، ولم توفق إلى إنشاء جبهة كفاح دولية فإنها كانت مع ذلك نواة الأحزاب الاشتراكية في كثير من الدول الأوربية .

واختفت الدولية الأولى حيالها، وانقطعت مؤتمرات العمل الدولية حيناً بسبب الخلاف الذي نشب بين ماركس والزعيم الاشتراكي الروسي « باكونين »؛ وفي سنة ١٨٨٩ أنشئت الدولية الاشتراكية الثانية، واستمرت تعقد مؤتمراتها الدورية حتى سنة ١٩١٤، وامتازت جهود هذه الدولية بروح سلمية وإصلاحية ظاهرة، وكانت ترمي بجهودها إلى التوفيق بين مصالح العمال وأصحاب الأموال، وإلى تحقيق ما يمكن تحقيقه للعمال من النفع والمزايا؛ وقد عقدت آخر مؤتمراتها في أوائل سنة ١٩١٤، قبيل نشوب الحرب الكبرى، برياسة رامسي مكدونالد زعيم حزب العمال البريطاني، واشترك فيه عدة من أقطاب الاشتراكية المعاصرين مثل كارل كاوتسكي الزعيم الألماني، وبرانتنج زعيم السويد، وفاندرفلد زعيم البلجيك وغيرهم. وكانت الدولية الثانية، منذ بعثت نذر الحرب في أفق أوربا، تجاهد في سبيل اجتنابها، وتهيب [illegible] التي تنضوي تحت لوائها أن تعمل بكل [illegible] السلم؛ ولكن هذه الجهود ذهبت عبثاً ونشبت الحرب الكبرى؛ وكان من أثر نشوبها أن خفتت النزعة الدولية وغلبت النزعة القومية على جميع الأحزاب الاشتراكية، وركدت ريح الدولية الاشتراكية مدى حين.

ولما انتهت الثورة البلشفية بالفوز في أواخر سنة ١٩١٧، وقامت حكومة السوفييت الاشتراكية في روسيا، فكر لنين وصحبه الزعماء البلاشفة في بعث « الدولية الاشتراكية » من جديد، ولكن على أسس جديدة؛ وهكذا أنشئت « الدولية الثالثة » في سنة ١٩١٨، واجتمع مؤتمرها الأول في مارس من تلك السنة، وسميت « الدولية الشيوعية » تمييزاً لها من الدولية الثانية التي كان يعتبرها لنين وصحبه هيئة رجعية خارجة على المبادئ الاشتراكية الصحيحة؛ وأعلن تأسيسها رسمياً في سنة ١٩١٩، وتقرر أن تمثل فيها جميع الأحزاب الشيوعية في مختلف الدول، على يد مندوبين يشهدون مؤتمراتها السنوية في موسكو؛ وأنشئت لها لجنة تنفيذية اختير لرياستها زعيم بلشفي بارز هو زينوفييف صديق لنين الحميم وساعده الأيمن، فلبث في رياستها أعواماً طويلة. ولم تخف « الدولية الشيوعية » غايتها الحقيقية التي أسست لتعمل لها، وهي إضرام نار الثورة العالمية؛ وكان لنين وصحبه يعتقدون في الواقع أن بوادر الثورة العالمية أخذت تبدو واضحة في الحركات الثورية التي طافت بمعظم الدول الأوربية عقب الحرب الكبرى. وأصدرت الدولية الشيوعية في مؤتمرها العالمي الثاني الذي عقد في موسكو في سنة ١٩٢٠، بياناً تبسط فيه غاياتها، وتصور ما حدث في الحرب الكبرى، وما تلاها من اضطراب السلم والنظام، واختلال أسس الحياة الاقتصادية في معظم أنحاء العالم، بأنه ليس إلا تطبيقاً لنظرية ماركس الشيوعية بأن النظم الرأسمالية تسير إلى نكبة نفسها، وأنها ستنحدر [illegible] منافساتها العنيفة إلى معترك حرب [illegible] إلى انهيارها، وأن هذه النكبة سوف تؤدي إلى انحلال الحضارة الأوربية ما لم يقض على النظم الرأسمالية ذاتها.

ولبثت « الدولية الشيوعية » أعواماً تضطلع بمهمتها الثورية الخطيرة، وتعمل ما وسعت على استغلال الأزمات والاضطرابات الدولية أينما حدثت، وتحرك الأحزاب الشيوعية في مختلف البلاد بوحيها وتعليماتها المباشرة، وهذه تعمل بدورها على بث روح الثورة بين طبقات العمال، وتدبير الاضطرابات والقلاقل المحلية؛ وكانت أحوال بعض الدول الأوربية التي هزتها الأزمات الاقتصادية والاجتماعية عقب الحرب الكبرى مثل ألمانيا وإيطاليا ودول أوربة الوسطى مسرحاً خصباً لجهود الدولية ودعاياتها؛ وكانت هذه الجهود تسفر عن بروز الثورات الشيوعية في المجر وألمانيا؛ وأحرزت الدولية الشيوعية أعظم نجاح لها في الصين، حيث استطاعت أن تؤلب القوى القومية ضد النفوذ الأجنبي،

وسيادة الدول المستعمرة ، وأن تعاون على إنشاء الجمهورية الصينية ، ثم الحكومة القومية . وكانت الدولية تلجأ في جهودها ومحاولاتها إلى التدابير والوسائل السرية التي قلما تعرف أو تدرك ؛ وكان أعوانها السريون من الدعاة والمحرضين يبثون في كل مكان تأنس فيه فرص النجاح ؛ ولم تكن جهودها الظاهرة من عقد المؤتمرات الدورية وإذاعة البيانات الهجومية ضد الدول « الرأسمالية » والاستعمارية ، سوى أبسط مظاهر نشاطها . وكان هذا الغطاء الذي تلجأ إليه الدولية في تدبير مشاريعها الثورية يزعج معظم الدول الغربية ولا سيما تلك التي تضم أحزابا شيوعية قوية مثل ألمانيا وفرنسا . هكذا كانت دولية لينين وصحبه أداة ثورية مزعجة تعمل بنشاط منقطع النظير لإضرام نار الثورة العالمية ، ولا تدخر في ذلك السبيل وسيلة أو جهداً .

— ٢ —

ولكن روسيا السوفيتية ما لبثت أن ... عليها جهود الدولية الثورية من خصومات ومتاعب ... الغربية ؛ وكانت سياسة الكرملين تتجه منذ وفاة لينين إلى التقرب من الدول الغربية شيئاً فشيئاً بعد أن عانت روسيا ما عانت من التطرف في تطبيق التجربة الشيوعية . ومنذ تولى ستالين وصحبه المعتدلون زمام الأمور (حوالي سنة ١٩٢٨) مالت سياسة روسيا الخارجية إلى مهادنة الدول الغربية ، والابتعاد عن التدخل في شئونها ؛ وحُدّ بذلك من نشاط الدولية الشيوعية ، وتوجت سياسة روسيا الجديدة انضمامها إلى عصبة الأمم في سنة ١٩٣٤ ، وعقد مختلف المواثيق مع الدول . وأخذت الدولية تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً ، خصوصا بعد أن اقتنع زعماء روسيا الجدد بأن محاولة إضرام نار الثورة العالمية أمر صعب المرام ، وأنه خير لروسيا أن تقنع بتنظيم بيتها ، وأن تقصر النظام الشيوعي نظاما لروسيا داخليا .

وقد أوضح أعضاء اللجنة التنفيذية للدولية في البيان الذي اقترحوا فيه إلغاءها ، أن هذا الإلغاء يستند إلى الحقيقة الواقعة ، وهي أن أحوال العالم قد تغيرت إلى حد كبير منذ تأسست هذه الدولية ، وأن قيام هذا النظام الدولي للطبقات العاملة لم يعد يتفق مع أحوال العالم الحاضرة خصوصاً إزاء الحالة التي أوجدتها الحرب الحالية .

ولا يخفى أن الدعاية الألمانية منذ اختارت ألمانيا أن تهاجم روسيا قد استغلت نظرية الخطر الشيوعي إلى أقصى حد ، وأن هذه النظرية ذاتها هي التي اتخذت أساسا لعقد ميثاق مكافحة الشيوعية بين ألمانيا وإيطاليا واليابان في سنة ١٩٣٧ ، وأن ألمانيا ما زالت تحشد قوى الدول التي تسيطر عليها باسم حماية المدنية والنظم الأوربية من الخطر الشيوعي ، فإلغاء الدولية الشيوعية في هذه الآونة يعتبر خطوة حكيمة موفقة ، ويقضي كما صرح الزعيم ستالين على هذه الدعاية من أساسها ، كما أنه يقضي على مخاوف الدول الغربية من تدخل روسيا في شئونها عن طريق الأحزاب الاشتراكية والشيوعية القائمة فيها .

هذا ولا ريب أن مبادرة الحكومة المصرية إلى إعلان اعترافها بحكومة السوفييت يمت بصلة وثيقة إلى قرار إلغاء الدولية الشيوعية . وقد كان قرار الحكومة المصرية بهذا الاعتراف متخذا منذ سنة ١٩٣٩ ، ثم حالت التطورات الدولية دون تنفيذه حتى جاء إلغاء الدولية مؤكداً لحياد موسكو وابتعادها عن كل دعاية أو تدخل في شئون الأمم الأخرى .

والخلاصة أن إلغاء الدولية الشيوعية معناه أن روسيا السوفيتية قد عدلت نهائيا عن الأخذ بفكرة الثورة العالمية ، وأضحت ترى في الثورة والنظم الشيوعية (مثلا) روسياً محضا يجب ألا تتعدى آثاره حدود روسيا ، وهي بذلك تقدم خطوة جديدة أخرى في سبيل التفاهم والتعاون مع الدول البورجوازية (الرأسمالية) الغربية .

مؤرخ

كفاح الموت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

داء السكر، وقصة دوائه

ذبابة في الحساء

وصل القائد : طبيب جراح بدعى « بنتنج » ، في مدرسة الطب بجامعة طورنطو بكندا ، له نظرة في داء السكر يظلع أساتذته « مكلود » عليها . وهذا بعد يأس له الأستاذ يتحقق هذه النظرية تجريباً ويطلب مساعدة شاباً اسمه « بست » وعشرة كلاب وثمانية أسابيع . أما نظريته فهي : بالبنكرياس غدة تسمى البنكرياس . فيها نوعان من الخلايا . خلايا كثيرة تفرز إفرازاً هاضماً يصب في قناة البنكرياس ، يصب محتويها في الأمعاء ، وخلايا يقع إفرازها الأسماء علماء الهضم المعروفين . ثم خلايا أخرى صغيرة ، واسمها الجزائرية ، تصب إفرازها مجهولا في الدم مباشرة . فهذا الإفراز هو مدار [illegible] « بنتنج » أن فيه مادة مجهولة [illegible] مرض السكر ، فإذا فسدت الخلايا [illegible] مرض الحيوان فمات . وهو لتحقيق نظريته يقترح : أولا ربط قناة البنكرياس فتمتنع عن الإفراز الهضمي ، وبذلك تفسد هذه الخلايا ، وبذلك يضمر البنكرياس ، أما خلاياه الجزائرية ذات الإفراز المجهول المطلوب فتبقى . وبذلك يتحقق هذا البنكرياس وتصح منه حساء يحقنه في كلب مريض بداء السكر ليرى على يشفى من سكره . وإفساد تلك الخلايا الكثيرة ذات الإفراز الهاضم ضروري ، لأن إفرازها يفسد الإفراز المجهول المطلوب إذا اختلط به عند عمل الحساء . أما القسم الثاني من الكلاب ، فهو الذي يُصيبه بداء السكر اصطناعاً ، وذلك بنزع بنكرياسها وخياطة جلدها ، فتمرض أياماً ثم تشرف على الهلاك من كثرة السكر في دمها وبولها . وفي الساعة الرهيبة ساعة الامتحان ، يحقن حساء بنكرياس هذه ، من كلب من كلاب القسم الأول ، في كلب هذه من كلاب القسم الثاني وقد أشرف على الموت ؛ فينتعش هذا الكلب ، ويقوم ، ويمشى من جديد ، ويبعث حيا جديداً . تحققت المعجزة على التحقيق . ولكن بطلع الصباح فإذا الكلب قد مات . وكيف ؟ والآن اقرأ :

لنشر الحق كيف جرؤنا أن نؤملا أن معجزة كهذه تدوم طويلا . إن الذي حقنوه في هذا الكلب الذي لا بنكرياس له ، وقد أوشك من داء السكر على الهلاك ، إنما هي قطعة صغيرة ضئيلة قليلة حقيرة ، هي بنكرياسٌ خاصٌ لكلب آخر ، تحجّروا بنكرياسه بربط قناته .

ونظر « بنتنج » إلى « بست » وهو كارهٌ أن يقول له ما يجول في خاطره ، كارهٌ أن يسأله : كم من الكلاب إذن لا بد من تضحيته لإحياء كلب واحد يصاب بداء السكر ، ثم كم تطول حياة هذا الكلب الواحد وكلُّ يوم يحياه معناه خسران كلب صحيح ؟ لا . لا . إنه عبث . إنه غير جائز ، ولا هو ممكن .

ولكن ما هذا التعجُّل ؟ أليس من الجائز أن تطول حياة هذا الكلب الهالك بعد حقنه ، وكان لسبب عارض غير هذه الحقنة ، كان محضُ مصادفة لا نعرف لها [illegible] « بنتنج » إلى « بست » وعينُه تسائله . وكلا يجب أن [illegible] المسائل سنعودها جميعاً من جديد على هذا [illegible] إلى غرفة التشريح مرة أخرى ، ثم العمل من حيث بدأ أولا . لا ، لا . لا مصادفة ، ولا شبه مصادفة ، بل هي النتيجة ترتبط بأسبابها ارتباطا وثيقا . فهذا الرابع من أغسطس ، وهذا كلب جديد ، بلغ به داء السكر حدودٌ ما بين الحياة والموت ، واجتاز الحدودَ إلا بقيةً منه ، فردُّوا إليه الحياة وقد ضاع الأمل فيها أو كاد . ردُّوا إليه الحياة كما ردَّها المسيح ابن مريم .

ولكن ... نعم ولكن ، ففي كل حساء ذبابة .

وهذا الحساء فيه ذبابتان : أولاهما أن الحياة التي رُدَّتْ حياة قصيرة لا يلبث أن يعقبها الموت ؛ حياة يبتسم فيها الأمل قليلا ، ثم يعبس طويلا ؛ حياة لا تدوم إلا ساعات . أما الذبابة الثانية فهي أنك إذا طلبت للكلب التالف حياة أطول ، وجب عليك أن تظل تحقن في دمه أحسيةً من بنكرياسات تحجّرتها في كلاب أخرى . وهذا

في العقل غير جائز ، ولا هو ممكن . وإذنْ فما إضاعة الوقت في عمل طائش لا يجوز ولا يمكن ؛

حفظا الحياة لكلب مريض هالك ، أمرضاه بالسكر ، حفظاها له ثلاثة أيام . فهل تدرى كم كلّفهما هذا ؟ كلّفهما كلبين سليمين يسعدان بالصحة ويشتعلان مرح الفتوة ليبدأ سانحاً . تطلبت هذه الثلاثة الأيام بنكرياسي هذين الكلبين كليهما . فهل هذا في المعقول مقبول ؟

كانت ثلاثة أيام ثقيلة لم تُغمض فيها لبنتنج عين . كان قد جرّب في هذا الكلب الهالك كل ما خطر على باله . فآنا حساء من كبد ، وآنا حساء من طحال ، وحقن تلك الأحسية في الكلب فلم تنفعه شيئا . فعاد إلى حساء البنكرياس . ومضى اليوم الأول ، وجاء اليوم الثاني والحساء العزيز — إكسير الحياة — آخذ في النقصان ، وأمل الرجلين يتأرجح بين الزيادة والنقصان ، وهما ساهدان ساهران بين منضدة العمل السوداء وغرفة التشريح الكريهة بأعلى الدار . وأصبح اليوم الثالث فأخذ الكلب يحتضر . وعندئذ حقناه الحقنة بعد الحقنة ، بعد انتصاف الليل ، ففي الساعة الواحدة ، ففي الساعة الثانية ، ففي الثالثة ، وكلها في وريد رقبته . فأخذ الكلب تعود إليه الحياة ، وأخذ يزداد قوة فقوة . وفي الساعة الرابعة ، والطيور استيقظت في أوكارها ، أعطوه حقنة أخيرة هي آخر ما بقي من الحساء . وفي الساعة السابعة نظر الرجلان بأعين حمراء من السهر في جهاز « بست » الكيمياوي لتقدير السكر ، فلم يجدا أثرا للسكر في بول هذا الكلب .

وبضحى النهار ، وارتفعت الشمس ، حتى إذا توسطت السماء ، مات الكلب .

فرغت الكلاب العشر التي ظن « بنتنج » أنها كافية لإثبات نظريته . فرغت من زمن بعيد . وكان أستاذه ، الأستاذ « مكلود » ، إذ ذاك في أوربا . وليس لديه علم مطلقا بما صنع « بنتنج » ، أو بما هو صانع ، ولم يخطر في باله أن في تلك الساعة ، في قسمه هو خاصةً من الجامعة ، كانت تجرى أحداث من أمتع ما عرف العلم ، ومن أخطر ما سجّل التاريخ ، يجريها رجلان ، أحدهما فلاح سابق وجراح سابق ، والآخر طالب طب في السنة الرابعة من دراسته . فرغت تلك الكلاب العشر الأولى التي أذن بها لهما الأستاذ « مكلود » ، فهل يسألانه كلابا أخرى ؟ لا . لقد عرفا سبيلهما إلى مصادر تفتنّها البحّاث ذو العزم الشديد . قال بنتنج : « لسنا في حاجة ، فلدينا الآن من الكلاب كفاية » .

ويأتى اليوم التاسع عشر من أغسطس ، فتجد بنتنج في الساعة الثالثة ، قُبيل فجر ذلك اليوم ، قاعداً وحده في غرفة التشريح العليا . قال « بنتنج » : « كنت جالساً أرقب الأعراض الأخيرة للكلبة التي رقمها ٩٢ » . والكلبة التي رقمها ٩٢ ، كانت كلبتهما هما ، وكانت عزيزة عليهما ، وكانت تجرى من المعمل حيث تشاء ، واليوم هي [illegible] نزعا بنكرياسها ، ثم حفظا حياتها ثمانية أيام بحُقن حسائها ، وسكّر دمها قليل كما في الأصحاء ، ولا يكاد يوجد سكّر في بولها . وهي في أثناء ذلك تلهو وتلعب [illegible] صاحبا [illegible] الأيام . واليوم هي راقدة تحتضر .

قال بنتنج : « لشدّ ما أحببتُ هذه الكلبة » .

ولإغاثتها حيّةً هذه الثمانية الأيام ، حقنوا فيها بنكرياسات ما لا يقل عن خمسة كلاب . خمسة كلاب تموت لتحيي كلبة واحدة . عمل سخيف فضلا عن فظاعته . ولكن هذه الكلبة أفادتهم فوائد كبرى ، وكانت صديقة مطاوعة . كانت تنطّ إلى المنضدة ، وترقد فوقها على جانبها في هدوء طوعاً ، ليستخرج « بنتنج » منها بعض دمها ليأخذه « بست » فيقدر سكّره . علّمت هذه الكلبة بحياتها لتعلّم « بنتنج » أنه لا فائدة من حقن البنكرياس إذا لم يسبق ذلك تسميره ، إذا لم يسبق ذلك ربطُ قناته لتتقلّص خلاياه التي تفرز عصارته الهاضمة . وعلّمته شيئاً آخر ، أن حساء البنكرياس أفعل إذا هو استُخلص في

ماء حامضى لا قلوى .

وكان يترك هذه الكلبة حتى تكاد تتردى فى قبرها ، ثم يردها عنه بحقنته . وكرر هذا مراراً . وعندئذ وثق وثوقاً لا شبهة فيه أنه أخيراً وقع على إكسيره الذى طلب . وقع على هذا الإكسير فى تلك الخلايا الجزائرية الصغيرة بالبنكرياس . والجزيرة الصغيرة بالإفرنجية لفظها إزلت islet فسمّى هذا الإكسير إزلتين ، سمّاه وهو لم يره ، وهو لم يمسّه ، ولكنه أحس أثره ، فوثق بوجوده وآمن به حتى كأنه رآه . وهكذا يُعرف ويُمجَّد الله .

وكان واجباً أن يبقى هذا الاسم الذى اختاره « بنتنج » . ولكن هذا الاسم بالطبع تغير ، والناس تعرف ذلك .

عادت الكلبة رقم ٩٢ ، إلى احتضارها . عادت بعد أن فرغ حساء البنكرياس كله ، فلم يبق منه قطرة ، عادت تحتضر وقد عرف « بنتنج » ما داء السكر ، وعرف ما دواؤه . وأخذ ينظر إلى كلبته [illegible] ما رأى . وأخذ يداور الأمر فى نفسه : إن الإزلتين [illegible] ثبت وجوده ، فلم يعد خيالاً ، [illegible] التجارب وهى ألمّة قاسية . إن الإزلتين يجعل السكر يحترق فى دم هذه الحيوانات إذا أصابها داء السكر ، فهو يشفيها من هذا الداء ، ولكنه كالجوهر عزيز نادر . وفى الدنيا ملايين من الناس تفتقده وتحتاجه ، وربما مات الألوف يموتون من عوزه .

قال بنتنج : « وعندئذ خطر لى أن ... ... » .

ويصبح الصباح فتراه يسرع إلى كلب سليم لم يمسه مشرط قط ، فيبنّجه ، ويعمل المشرط فيه سريعاً . وهذا « بست » يعالج أمعاء هذا الكلب ليستخلص منها مادة اسمها سكرتين Secretin تستحثها الأمعاء فى أغشيتها فيمتصها الدم فتدور فيه ، حتى إذا أتت البنكرياس حثت خلاياه ذات الإفراز الخاص على صب إفرازها . وهذا الإفراز هو الذى يتلف الخلايا الجزائرية فيفسد إكسيرها . فلا بد للمرء أن يتخلص من هذا الإفراز ليبقى إكسير تلك الخلايا صالحاً . وظل « بنتنج » فى ذلك الصباح فأعانه وحليفه أربع ساعات يحقن فى هذا الكلب ما استخلص من أمعائه ، والكلب يتنفس تحت البنج تنفساً هادئاً منتظماً . حتى إذا أطلق « بست » خلو القناة البنكرياسية من عصارة البنكرياس الهاضمة ، فلم تعد تجرى فيها من تلك العصارة قطرة ، نزع « بنتنج » من هذا الكلب بنكرياسه ، ثم رده حتى ألحقه وجذاذه ثم هرسه ليصنع منه حساءه .

ويصعد الحساء إلى كلبته ، كلبة رقم ٩٢ ، وهى راقدة فى قفصها ، تتنفس أضعف أنفاسها ولا شىء غير هذا ، فيحقنها الحساء .

وتصعد الشمس إلى ضحيتها ، فيجد هذه الكلبة قد [illegible] وأخذت تتشمم روائح العيش عالية من جديد [illegible] فتنط وتخرج منه ، وتجرى [illegible] إلى سيدها ، إلى هذا السيد [illegible] أحياها مراراً .

قال بنتنج : « لا أنسى أبداً ما ملأنى من الفرح لما فتحت قفصها ... » .

ولكن نعود المسألة إلى قديمها . إنها غير جائزة . إنها غير ممكنة . فإنك لن تستطيع أن تطهر البنكرياس من عصارته الهضمية فى آلاف الكلاب أو آلاف البقر أو الخنازير بهذه العملية الدقيقة لتشفى ملايين المرضى من الناس فتمنع أجسامهم أن تجعل فتجرى فى أبوالهم سكراً . إن الذى أتاه « بنتنج » إلى الآن جميل فى أعين العلم ، ولكنه من الوجهة العملية زخرف غير نافع .

ومع هذا لم يفقد صاحبنا أمله . وظل يضرب فى طريقه ، يحدوه رجاء لا يعرف كيف يخيب .

ولم لا يرجو ؟ وكيف يخيب له أمل ؟ ألقد كفاه تشجيعاً ، وكفاه إغراء رجائه ، رؤيته هذه الكلبة ،

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

— ٦ —

يعود الشيخ رفاعة من السودان إلى مصر فى أول عهد سعيد باشا، ولكن لا تعود مدرسة الألسن؛ فسعيد لم يُعِد نهضة التعليم كما كانت فى عهد محمد على وإبراهيم، وإن توسع بعض الشىء عما كان عليه فى عهد عباس الأول — وإنما يعود ناظراً ثانياً، أو بعبارة أخرى وكيلا لمدرسة حربية كانت بالحوض المرصود، وكان ناظرها سيف باشا أو سليمان باشا الفرنساوى مؤسس الجيش المصرى ومنظمه، وقائد الجيوش فى حروب محمد على وإبراهيم، وصاحب القتال فى الميدان الذى [illegible] وكان جباراً عنيداً، وقف أمام الجيوش [illegible] له: هل أنت سيف الذى حدثونى عن غطرسته؟ فأجاب: إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله لى عدت إلى فرقتى، ثم أعطى ظهره له ورجع إلى مكانه، فرقاه نابليون لجرأته؛ وهو الذى حمل الأعمال الحربية العظيمة فى مصر، من تمرين الآلاف ثم تمرين المصريين حتى حذقوا الحرب وتفوقوا على الجيش العثمانى؛ هذا هو الناظر الأول الذى عين ناظره الثانى الشيخ رفاعة، و«عجب» لهذا الوضع الذى لا مبرر له إلا أن الشيخ رفاعة «مير الاى».

ومع هذا فقد وسّع «الشيخ» نفوذه العلمى، فقد وضع مشروع مدرسة بالقلعة تدرس فيها الفنون الحربية والمدنية، وأقره عليها سعيد باشا، فاختار لها المدرسين، وراعى فى كل ذلك ما يشوّق الأهلين للإقبال عليها [illegible] — ثم امتد نفوذه فأعيد قلم الترجمة، وهو أشبه شىء بمدرسة الألسن، وجعل مشرفاً عليه، [illegible] الخاصة والمدرسة الملكية [illegible] إشارة وهو جدا إليه، واستمد [illegible] فى التعليم والنشر.

وهنا ذكر الشيخ صديقه بالمستشرق دوساسى، والمستشرق كورين، وما يقوم به المستشرقون من أعمال قيمة فى خدمة اللغة العربية بنشرهم أمهات الكتب، فوضع مشروعا للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة وطبعها بمطبعة بولاق، وعرضه على سعيد باشا فأجازه؛ وعين الشيخ محمد قطة العدوى، والشيخ إبراهيم الدسوقى، والشيخ نصر الهورينى وغيرهم، واشترك معهم فى اختيار الكتب التى تطبع والقيام على تصحيحها وطبعها؛ فطبع بإرشاده تفسير الفخر الرازى، ومعاهد التنصيص، وخزانة الأدب، ومقامات الحريرى، وغير ذلك من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية. فكان هذا دعامة أخرى من دعائم النهضة: تأسيس الكتب بعد تأسيس الرجال؛ وأعانه على ذلك معرفته الواسعة بالكتب العربية وعرفانه

كلبة رقم ٩٢، لا تزال قائمة [illegible] عشرون يوما عاشتها وهى لا [illegible] حدث من جنسه فى تاريخ الحيوان والناس. وماتت الكلبة أخيرا. ماتت بعد كل هذه النتائج، ومع هذا [illegible] «ينتج» الموت [illegible] لم يكن فيه [illegible] بالحقيقة النظرية إذا هى لم تؤد به إلى غايته العملية. لقد احتال لإبقاء هذه الكلبة حية، واخترع وأتقن الفنون الغريبة المستحيلة ليحفظ لمصباح هذه الحياة نوره، وليمنع شعلته أن يطفئها الريح، وتأزم به الأزمات، فى كل الأوقات، فى ضحى النهار أو فى منتصف من الليل، فلا يعوزه الخاطر والخواطر الحسنة: يمر هنا فرصة يكون منها الإفلات. ثم وراء هذا الركن يكون الروغان والدوران. ثم ... ثم ... ثم هو يندفع إلى الخلاص بقوة، فكأنما يد الله من ورائه تدفعه. ومن ذا الذى يقف رجلا تدفعه من ورائه يد الله؟

(يتبع) أحمد زكى

اقتنائها ، وإنشاؤه لنفسه مكتبة واسعة غنية بالنوادر .

* * *

لم تكن كل الأمور ميسرة كما نراها اليوم ، بل كان الطريق لكل عمل وعراً محفوفاً بالمصاعب ، فإنشاء مدرسة أو إلغاؤها منوطان بالوالي نفسه ، فلا بد من قصائد مديح ودعوات صالحات ومعاني أتين ، تقدّم للوالي في الآنف من جرى لينشئ مدرسة ، ولا بد في أول الكتاب وآخره من ثناء مستطاب ، ودعاء الأنجال ، وتزلّف لذي النعمة ليتم طبع الكتاب ، ولا بد ولا بد ولا بد في كل شيء من كل شيء ؛ والشيخ ماهر في كل ذلك ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويأتي البيوت من أبوابها ، فيسهّل عسيرها ويحلّ عقدتها .

ووسائل العلم نفسها عسيرة كسائل الولاة والأمراء ؛ فالعلم الحديث قد تقدم ، والعلم العربي قد وقف منذ بضعة قرون ، وهو إذا أراد ترجمة كتاب عرف المقاتل بالمصطلحات : ماذا منها عرفه القدماء وماذا منها لم يعرفوه ، وماذا يصنع من الكلمات التي لم يعرفوا؟ هل ينقل الكلمات الأجنبية كما هي بعد صقلها صقلا عربياً ، أو يبحث لها عن لفظ عربي ؟

لقد حيّره ذلك منذ كان في باريس ، وقد عُهد إليه ترجمة كتاب في « الفولكلور » أو عادات الشعوب ، سماه « قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، يتمرّن فيه على الترجمة ، فاصطدم بأسماء البلاد الأفرنجية والرجال والأشياء ، وكان هو لم يعرفها فيرجع إلى المعاجم التي تشرحها ، فبم يترجمها ؟

لقد اهتدى إلى فكرة لطيفة ، هي أن يعمل للكتاب ملحقاً يضمّنه كل الأسماء الأفرنجية التي وردت في الكتاب ويرتبها على حسب حروف المعجم ، ويضع لها رسماً مأخوذاً من اللفظ الأفرنجي ، ويصقله صقلا عربياً ؛ فلمرابيل « اوربلة » بسكون الواو وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فزاى مكسورة فلام فتاء تأنيث ، ثم يأخذ في شرحها وتاريخها ، وأوميروس أو هوميروس ، ويضبط الكلمة ويحرك به ، وكذلك البارومتر ، والسبكتاكل ، ويقال له التياترو اسم لعبة ببلاد الفرنج يلعب فيها تقليد سائر ما يقع ، ويأخذ في شرحها في نحو صفحة ، وهكذا .

ويود أن كل مترجم كتاب يجرد هذه المصطلحات ويعربها كما فعل ، ويجمعها في أول الكتاب أو آخره حتى يكون للغة العربية بعد ذلك معجم جامع لكل المصطلحات الأفرنجية ، وأسماء البلاد والأشخاص والأشياء ؛ وهذا نص كلامه العجيب : « وقد شرحنا الكلمات الغريبة التي توجد في هذا الكتاب ورتبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به ، حتى يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة في اللغة كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ؛ ولو صنع نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم لكان الأنسب الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المترجمة على حروف الهجاء ، ونقلها في قاموس مشتمل على سائر الكلمات المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » .

أمنية تمناها ، وحقق أملاها منذ ١١٦ سنة ، لو سرنا عليها لخففنا أكثر مشاكل التعريب التي نعانيها اليوم .

وظل يكافح في هذا الباب كفاح الأبطال ، فقد عُهد إليه منذ عودته أعمال مختلفة تتصل بعلوم مختلفة ، فأخذ في كل منها يواجه مشكلة مصطلحاتها ، ويضع منها ما ندين له ببعضها اليوم — يترجم في الهندسة ويضع بعض مصطلحاتها ، وكذلك في الطب ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ ويترجم القانون المدني الفرنساوي ويضع مصطلحاته ، وهكذا .

* * *

بلغ « الشيخ » أوجه في عهد إسماعيل باشا حيث الحركة

العلمية قوية نشيطة؛ بلغ أوجه المالي، فقد منحه إسماعيل ٢٥٠ فداناً أخرى، فبلغ مجموع ما مُنحه ٧٣٦ فداناً، واشترى هو ٩٠٠ فدان أخرى، فكان ما يملكه ١٦٣٦ فداناً، غير العقارات العديدة في القاهرة وطهطا؛ فقد كان في عهد يكافأ فيه الرجل النافع بما يوسّع رزقه، ويوفّر جهده لعمله؛ ومع ذلك فهذا الباب أغلقه مقوّماته، فقد ذهب الشيخ رفاعة، وأصبحت أطيانه الموقوفة مصدراً لنزاع لا ينتهي، ولم يخلّده إلا مجهوده العلمي وآثاره الباقية.

وبلغ أوجه العلمي، فهو عضو من أعضاء «قومسيون المدارس»، يضع براجمها، ويشرف على التعليم والامتحان فيها، ويقول فيه علي باشا مبارك: «كانت مجامع الامتحان لا تزهو إلا به»، وهو ينشئ أول مجلة مصرية هي «مجلة روضة المدارس»، يلتف حوله في تحريرها أدباء مصر وعلماؤها.

ويرى أن ليست هناك كتب تدريس تلائم روح النهضة الجديدة والعقلية الحديثة؛ فالكتب الأزهرية لا تناسب الطلبة، والكتب الأدبية القديمة مملوءة بالغث والسمين، والدنيا كلها تؤسس تعليمها على النعرة الوطنية، والتعريف بمزايا الوطن وتاريخه، وتستنهض همم الناشئين لخدمته، ولا شيء من ذلك في الكتب العربية.

إذن فليقم هو بكل هذه المهمات.

يؤلّف كتاباً في النحو على نمط جديد، محتذياً فيه حذو الفرنسويين في تسهيل أجروميتهم، ويسميه «التحفة المكتبية» في القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية، ويضع بعض القواعد في شكل جداول يسهل حفظها.

ويضع لطلبة المدارس كتاب «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية»، وهو أول كتاب عربي يتجه إلى الناحية الوطنية، فيذكر معنى الوطن، ومصر ومزاياها؛ ويشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب، فيذكر كيف تؤدّى في البلاد المتمدنة، وبدءاً مما قام به بعض رجال السلف في سبيل المنفعة العامة، وواجب الأغنياء، وكيف يربى الأولاد، وفصولاً في الاقتصاد المصري من منابع الثروة وتقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير منتجة؛ ويعود إلى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها في الأمم وتاريخ مصر إزاءها إلى عهد محمد علي، ويذكر الإصلاحات التي عملها، ثم يذكر الآمال التي يأملها في المنافع العامة في المستقبل.

ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأعمال المستحسنة.

وهو — في كل ذلك — يجمع بين ثقافته الإسلامية وثقافته الغربية.

ويدعو إلى تعليم البنات، وتنشأ أول مدرسة للبنات في مصر [illegible] رضى من ذلك الرأي العام المصري التدرّج، فيقف الشيخ رفاعة في كتبه يحبذ تعليم البنات، ويردّ حجج المعارضين، فيقول: «ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم... وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها... وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة؛ وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء، فإن

المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها، وفيما يأكلون ويشربون، ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها، وهكذا. وأما القول بأنه لا ينبغي تعليم النساء الكتابة، وأنها مكروهة في حقهن ارتكاناً على بعض الآثار، فينبغي ألا يكون ذلك على عمومه؛ ولا نظر إلى من قال إن... من طبعهن المكر والدهاء والناقصة، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية... فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات المذمومة، وكم من نهي وردت به الآثار كفارية السلاطين والتحذير من الغني، وقد حمل كل ذلك على ما يعقبه شر وضرر محقق؛ وتعليم البنات لا يتحقق ضرره، وكيف ذلك وقد كان من أزواجه صلى الله عليه وسلم من تكتب وتقرأ كحفصة وعائشة. الخ الخ.

ألست ترى معي أن هذه النظرة [illegible] كانت قبل قاسم أمين بنيف وثلاثين عاماً، وقد ملأ الشيخ هذا الفراغ بتأليف كتاب المطالعة يصلح أن يوضع في يد الفتى والفتاة سماه «المرشد الأمين للبنات والبنين».

* * *

قد يكون (الشيخ) في شعره ضعيفاً أشبه ما يكون شعر الفقهاء، وقد لا يبلغ في نثره مبلغاً عالياً، فكثيراً ما تعثر في السجع المتصنع، وبشد أنواع البديع شداً؛ ويبدو ذوقه أحياناً في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» في تعرضه لموضوعات لا يصح أن توضع في يد البنات كقصته في «البكارة والثيوبة» ونحو ذلك؛ ولكن من العدل إذا قسناه أن نقيسه بزمنه، وبمن قبله لا بمن بعده — فقد نشأ في زمن يُعَدّ فيه «من فك الخط» كاتباً، وعالم الأزهر الذي يقرأ «المطوّل» و«الأطول» في البلاغة لا يحسن أن يكتب خطاباً لأمه أو أبيه.

على أن قيمة «الشيخ» الكبرى ليست في أسلوبه وشاعريته أو نثريته، إنما هي في أنه نشر العلم في أوساط فسيحة، وأسس نهضة علمية متوثبة، وفتح للمتعلمين آفاقاً واسعة لم يكن لهم بها عهد، وذوّقهم معنى العلم الصحيح، وشوّقهم للاستزادة منه، وبصّرهم بعيوبهم، وأبان النواحي لتكميل نقصهم؛ وليس ذلك بقليل على رجل.

* * *

أربعة وأربعون عاماً تقريباً منذ عاد من باريس وهو في هذا العمل الدائب والحركة التي لا تنقطع في التعليم والتأليف والترجمة والنشر، حتى أوفى على الخامسة والسبعين، وقد دهمه الدهر الذي لا يرحم، فلفع بالشيب رأسه، وأحنى قوسه.

وفي ليلة فاجأه مرض البروستاتا أو التهاب المثانة فعولج حتى شفي، ثم عاوده واشتد عليه؛ وفي أول ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ و ٢٩ مايو سنة ١٨٧٣ حضر ولده، [illegible] روحه — سرى البرق بنعيه — فلما عرفت مصر نبأ موته احتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس، وازدحمت الشوارع بالناس يرددون بعض محاسنه: يذكره الأزهريون على أنه أستاذهم، والمتعلمون المدنيون على أنه أبوهم، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم؛ وكلهم يتوجع لفقده، ويشيد بذكره. وسار المشهد من منزله بالهمشا حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته، فاشتركوا في تشييع الجنازة، ووضع النعش في القبلة الجديدة، ولا يكون ذلك إلا لعظيم، وأخذ الأفاضل في رثائه بالقصائد والخطب، ثم حمل إلى «بستان العلماء» حيث طويت صحيفته، وبقيت آثاره خالدة تنطق وتتزايد وتتوالد — رحمه الله فقد صنع لأمته كثيراً.

(انتهى) أحمد أمين

السوسن وبرعمة الورد

[كتب هذه القصة فريدريك ليوبولد فون هاردنبرج Hardenberg المشهور في عالم الأدب باسم نوفاليس Novalis ، ولد في سنة ١٧٧٢ م ، ومات شاعراً يافعاً في الشباب والعشرين ، ولم يستطع دهره أن يطيل حياته حتى في جاه الأدب بمخلفات أكثر ، وتوفر على العلوم والفلسفة ، وتتلمذ على شيلر وارتبط بشليجل Schlegel وثيق بأواصر الصداقة ، وشعره يمتزج بالنغم الموسيقي ويشع بالصوفية ، وتتخلله نبرات الحزن التي فرض عليه قبل الأوان من موت خطيبته وموت شقيقه ، وكانت زهرة يانعة دهمها قطفها الموت ولما تكمل خمسة عشر ربيعاً]

كان في سالف الزمان إنسان في نضرة الصبا يعيش بعيداً نحو الغرب . وكان هذا الإنسان طيباً غاية الطيبة ، عجيباً مع ذلك غاية العجب ؛ فهو دائب الحزن في غير ما شيء ، لا ينفك دائماً بالصمت ، يتنحى إلى العزلة حين يلهو الناس ، ويتعلق أموراً غاية في الغرابة .

فالمغارة والغابة مقامه المحبوب ، يتحدث فيه إلى الحيوان والطير ، والشجر والصخر ، حديث خرافة باعث على الضحك . وقد جهد في تسليته السنجاب والقرد ، والببغاء ، والصفور[1] ، وتعبت كلها في رده إلى السبيل السوي ؛ لكنه ظل الساخط الكئيب .

كانت الإوزة تقص عليه مختلف الأقاصيص ، وكان الغدير يترنم بينها ، والحجر الضخم يقفز أثناءها قفزات مضحكة كقفزات التيس . وكانت الوردة تتبعه راضية حيثما سار ، وتتسلل في خصله متوددة ؛ وكان اللبلاب لا يفتأ يلاطف جبينه المطرق .

لكنه مع هذا لم يبرح الاكتئاب ، ولم يزايله التجهم ، فكان أبواه من جراء ذلك جد كئيبين ، وكانا أبداً في حيرة من أمره ما ذا يصنعان ؛ فقد كان صحيحاً لا يزهد في طعام ، وكانا حريصين على مرضاته ؛ وكان من سنوات مضت طروباً مرحاً كما لم يكن إنسان ؛ يمرح ويلعب في طليعة اللاعبين ، ويفوز بالتفات الفتيات الحسان . وقد كان جميلاً بارع الجمال ، يحسبه الرائي صورة بالألوان ؛ حاذقاً للرقص يحذق العشاق . وكان في الفتيات طفلة فاتنة يخالها من يراها قد صيغت من شمع ، ناعمة الشعر كأنه حرير ، شقراؤه كأنه نضار ، وبهاء العينين ، أبية كالدمية ، ثانية الشفتين في لون العناب ، يتمنى المرء لو فني في هواها فهذا القدار حسنها ورضاها

وكان السوسن ، وهو اسم الفتى ، يحب البرعمة ، وهذا اسم الفتاة ؛ فقد أشرب حبها إلى حد الفناء . وكان سائر الفتية والفتيات يجهلون أمرهما ، حتى كشفته البنفسجة عن الأسماع ، وعلمته القطط تجاور البيتين . فكان السوسن وهو بنافذته ليلاً ، وكانت البرعمة وهي بنافذتها كذلك ، تمر بهما القطط في طلبها الجرذان ، فتضحك حين تراهما واقفين ، وتغرب في الضحك بصوت مرتفع [illegible] .

[illegible] الضحك حتى يسمعها [illegible] الذئب ، فقصها [illegible] على صديقته الزاوية ؛ فعادت تغمز كلاهما السوسن ؛ ثم لم تلبث الحديقة أن علمت الأمر ، وانتشر منها إلى نواحي الغابة ، فكان السوسن إذا خرج إليها تجاوبت الغابة بأغنية واحدة :

برعمة الورد يا حبيبة الفؤاد !

فيغضب السوسن ، ثم لا يلبث أن يضحك حين يرى السحلاة آتية تتسلل ، تعتلي حجراً طلباً للدفء ، وتحرك ذنبها كأنها تقول :

برعمة الورد يا طفلتي الحبيبة ،
ما ذا دها عينيك من منظر الحبيب ؟
تطوفين حوله كأنما كان أعمى ،
وتتبعين شخصه فلا تريدين ،
بل تمضين في تقبيل وجهه القريب !!

لكنه يا أسفاه ! فقد ولى الهناء ؛ إذ جاء رجل

(١) عصفور صغير .

قادماً من سفر بعيد الأرجاء، ذو لحية مرسلة، وعين غائرة وشاحب رهيب، وثوب عجيب! كثير التنقل، موشى بالصور. فقد قالة بيت السوسن فأثار منظره فيه الفضول، فما يستطيع مليّة غيره، وأكله بشيء من الخبز والخمر. وفرق الرجل لحيته البيضاء، وأخذ يقص على السوسن القصص إلى ساعة متأخرة من الليل؛ والسوسن لا يتزحزح ولا يتزعزع، ولا يدركه التعب ولا الملال.

وذاع فيما بعد أن الرجل الغريب قد حدث السوسن من بلاد أجنبية، وأصقاع مجهولة، وأشياء عجيبة، وأنه قضى معه ثلاثة أيام يغوصان إلى الأعماق، ويشتاقان إلى الشُّرَى[1]. وزهرة الورد تصب اللعنات في تلك الأثناء على رأس الشيخ الذي سحر السوسن واستحوذ عليه؛ فلم يعد يأبه لشيء غيره، اللهم إلا القليل من [illegible].

ورحل الرجل بعد إذ ترك السوسن كئيباً [illegible]، وزوده السوسن بالفاكهة والخبز والخمر [illegible] من الطريق؛ ثم عاد مسلوب الفكر [illegible]

وحزنت الزهرة عليه، وأخذ [illegible] إلى نفسه.

وفي ذات يوم جاء السوسن جاءه إلى بيت والديه فعانق أبويه، وبكى ثم قال: لا بد لي من الرحيل إلى بلد غريب، فقد أهابت بي عجوز الغابة أن أشجع الصحة، وأحرقت كتبي وأطعمته النار؛ ثم دعت بي إلى البكاء أشد [illegible]، وقد أعود قريباً وقد لا أعود أبداً. فأبلغا سلامي إلى الزهرة؛ فقد كنت حقيقاً أن أذهب إليها لولا دافع قوي يدفعني إلى الرحيل.

« إني كلما فكرت في الأيام الخوالي تغلبني على تفكيري أفكار أقوى. فالراحة والهدوء، والقلب والحب وليّا معاً عني، فلا بد من نشدانها جميعاً. لوددت أن أنبئكم أين مرتحلي، ولكنني أنا نفسي لا أعلم ذلك. ولعلي ذاهب إلى أم الأشياء، إلى العذراء ذات القناع! فنفسي تذوب حنيناً إليها. فالوداع!».

وانتزع نفسه من أحضان والديه، ومضى في سبيله إلى ما لا يعلم من وجهته.

وبكاه أبواه، وذرفت عليه الدمع، وانتحبت زهرة الورد وحدها، وجرت عبراتها سخينة غزيرة.

ومضى السوسن يقطع الوديان والقفار، ويعبر الجبال والأنهار، ولا قصد له إلا البلد الخفي. فكان يسأل أينما سار عن إزيس الإلهة المقدسة: يسأل الإنسان والحيوان، والصخر والشجر، فيضحك بعضها، ويصمت البعض، ولا يفوز أبداً منها بجواب.

واجتاز أول الأمر أرضاً وعرة موحشة، واعترضته الضباب والسحاب، فكان يقتحم ما يعترضه، حتى إذا [illegible] رملية لا يدرك الطرف آخرها، وسار فوق رمالها المضطرمة الوهاج، جهلت نفسه تتبدل كلما أمعن في [illegible] انتظاره، وازداد [illegible]، وسال [illegible] رملاً خفيفاً، لكنه قوي [illegible]، وكأنه عبر منه شوطاً بعيداً.

ثم بدت الأرض غنية ثانية، متنوعة، لاذعة الهواء، مستوية الطريق، تستهويه أوراقها الخضراء إلى ظلالها الفيحاء، لكنه لم يكن يفهم كلامها، ولا كانت تبدو أنها تتكلم، وإن أمست قلبه نضرة، وأثارت عليه السكينة والسلام.

وازداد الشوق في نفسه كل يوم شبوباً، وازدادت أوراق الأشجار على الأيام عرضاً، وربت نضارة، وعلت أصوات الطير والحيوان، وازدادت ارتفاعاً وانشراحاً، وطابت الفاكهة على مر الزمن نكهة وشذاً، واشتدت زرقة السماء وحرارة الهواء، وازداد هواه اضطراماً، وجعلت الأيام تمر سراعاً، وكأنما هو من غايته قاب قوسين أو أدنى.

وقد كان نهار صادف عيناً صافية، وطائفة من الأزهار تهبط وادياً بين مُحَنَّد قاتمة اللون تضارع السماء، فحيته الأزهار تحية طيبة بعبارة يفهمها، فقال لها يخاطبها: أيتها الواطئات العزيزات! ترى أين مقام إزيس وقدسها

(1) الشرى: جمع شروة.

غسل الكتابة

كانت الحاجة إلى الورق وندرته في العصور الخالية تحمل النساخ الأقدمين إلى أن يكشطوا كتابة بعض الرقوق ، ليستعيضوا منها غيرها . وفي بعض خزائن الكتب نماذج من هذا القبيل . ففي خزانة المتحف البريطاني مثلاً مخطوطة قديمة العهد على الرق ، كتبت أولاً باللغة اليونانية ، ثم عمد أحد النساخ السريانيين إلى محو تلك الكتابة وإحلال كتابة سريانية محلها ؛ ولكن آثار الكتابة الأولى ما زالت واضحة جلية في بعض المواطن كأنها تريد أن تعلن عن أصلها الغابر . وفي بعض الخزائن الكبرى أيضاً رقوق فيها مخطوط قديمة ، كتبت فوقها خطوط جديدة ؛ وهذا ما يسمى عند الفرنج بلفظة Palimpseste

وقد وقفنا على ما يشبه هذا الموضوع [illegible] الأسلوب والغرض ، وذلك فيما صنعه بعض الناس بكتاباتهم أو بكتابات غيرهم ؛ فقد كانوا يعمدون إلى غسل الكتابة ، بأن يضعوا الكتب أو الأوراق المخطوطة في الماء مدة من الزمن ، فيمحى حبرها وتطمس كتابتها وتشوش معالمها ، وذلك للتخلص مما فيها من أقوال أو آراء لا يرغب في الإبقاء عليها ولا في الاحتفاظ بها . فكان من يقدم على إتلاف تلك الكتابات إنما غرضه التبرؤ مما كتب أو التوبة إلى الله عما صنع ، أو تلافي ما فرط منه . من ذلك ما حكاه ابن حجر العسقلاني أن صدر الدين ابن الوكيل ، المتوفى سنة ٧١٦ للهجرة (١٣١٦ م) كان « إذا مرض غسل ما نظمه من الشعر »[1] ، فكأن منظوماته الشعرية آثمة في الحالات الدينية ، وتحول بينه وبين رضا الله عنه . ومن ذلك ما قاله ابن حجر العسقلاني أيضاً عن علي ابن [illegible] بن عبد الله بن [illegible] ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ

(1) [illegible] أعيان المائة الثامنة (ج ٤ : ١٢٠) .

الأقدس ؟ فإنه لا بد أن يكون في هذه [illegible] كنت أدرى بهذا المكان مني — قالت الأزهار : إننا نعرف هذا المكان معبراً فحسب ، وتتقدم فيه أسرة من الأرواح تمهد لنا السبيل وتمد الظلام . وقد سمعنا مرة همسة بإحدى الجهات تسمعنا اسم فردوس على الأفواه ؛ فنحن نمضي إلى حيث ابتغاءنا فنمتع أكثر مما علمت .

واتشحت الأزهار ، واتشحت العين إذ قالت ذلك ، ورددته بحركة منتشية ؛ ومضت الأزهار في سبيلها ، وحمل السوسن بشارتها ، فجعل يسأل ويسأل ، حتى بلغ ذلك المنزل المنشود المتواري بين النخيل وروائع النبات ، فخفق قلبه خفقاناً شديداً ، وطغى عليه الحنين ، وسرى اضطراب حلو في ذلك القدس الذي تسكنه فصول السنة على الدوام .

وغلبه النعاس في عبق العطور السماوية ، لأن زيارة قدس الأقداس إنما يكون من طريق الأحلام .

[illegible] عذارى لا تعرف آخراً ، وأشياء غالية في العجب ، وأصواتاً ساحرة ، مستقرة متقاربة متحدة الانسجام ، وكأن ما يرى لا يجهله ، فسكن روعه فاقت في نظره كل روعة . ثم انشق من عينه آخر مظهر لهذه الأرض ، وكأنما قد انتابه الهواء ، ثم ألقى نفسه ماثلاً بين يدي العذراء السماوية ، فتقدم نحوه من وجهها القناع اللامع الرقيق ، فإذا رحمة الورد تبدعه ، وترتقي في أعماقه .

وصدحت من بعد موسيقى تمرح لمرأى اللقاء الحبيب ، وتصاعدت فروض الحنين ، وتقمص من المكان البهيج كل غريب .

وعاش السوسن طويلاً بعد ذلك ينعم بعشرة رحمة الورد ، وصحبة أبويه ورفاقه البهيجين ، وزرقة الأولاد ، ومجد الأحفاد تجوز الغاية سداد الرأي ، وفضل الذكر التي ألهمت استشفاف المجهول بالخيال الخصيب .

محمود الدسوقي

(١٣٠٦ م) ، من أنه « كان قد أغرى بالكيمياء ، وحصل فيها كتباً كثيرة جداً ، وكان يزعم أنها صحت معه . قال ابن الجزري : كان صاحبي ، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة . ولما مات توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاشترى منها جملة وغسلها في الحال ، وقال : هذه الكتب كان الناس يضلون بها ويضيع أموالهم ، فأفديتهم بما بذلته في ثمنها »(١) .

ولا يخفى أن ما كان يصبو إليه الكيماويون في الأزمنة القديمة ، هو البحث عن الإكسير للتوصل به إلى استخراج الذهب من المعادن الخسيسة ، وهو أمر وآه لم تحققه الأيام !

ومما قرأناه من الأخبار في هذا الباب ، ما كتبه كمال الدين الأدفوي في ترجمة محمد بن مخلوف الشيخ الصفتي الشافعي ، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) قال : « وحضر مرة الشيخ بهاء الدين القفطي ... الصفتي إليه ، وعرّفوا الشيخ عنه ... يسأله عن شيء ، فيذكر شيئاً من ذلك ويتكلم فيه بشعره ، فيكتب الشيخ ما يقوله ، إلى أن اجتمعت عنده كراريس . فلما قصد التوجه جاء إليه وقال : يا سيدنا ، لا تعتمد على هذه الكراريس فإني أرتجلها . فشق على الشيخ وغسلها »(٢) .

ومن أقدم الأخبار الواردة في غسل الكتابة ، ما رواه القاضي أبو علي المحسن التنوخي ، المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) عن أبيه ، وذلك في معرض كلامه على المنجمين وما قد يتأتى لهم من توفيقات وكشوف ، قال : « هذا أبي ، حوّل مولد نفسه السنة التي مات فيها ، فقال لنا : هي سنة قطع على مذهب المنجمين ، وكتب بذلك إلى بغداد إلى أبي الحسن بن البهلول القاضي صهره ، ينعى نفسه إليه ويوصيه ، فلما اعتل أدنى علة وقبل أن تحكم علته ، أخرج التحويل ونظر فيه طويلاً وأنا حاضر ، فبكى وأطبقه واستدعى كاتبه وأملى عليه وصيته التي مات عنها ، وأشهد فيها من يومه ؛ فجاء أبو القاسم غلام زحل المنجم ، فأخذ يطيّب نفسه ويورد عليه شكوكاً ؛ فقال : يا أبا القاسم ، لست ممن يخفى هذا عليه فأنسبك إلى غلط ، ولا أنا ممن يجوز عليه هذا فتسفسطني . وجلس فوافقه على الموضع الذي خافه ، ثم قال له أبي : دعني من هذا ، بيننا شك في أنه إذا كان يوم الثلاثاء العصر لسبع بقين من الشهر فإنه ساعة قطع عندهم . فأمسك أبو القاسم واستحيا منه أن يقول نعم ؛ فأمسك أبو القاسم غلام زحل لأنه كان خادماً لأبي وبكى أبي طويلاً ، ثم قال : يا غلام ! الطست ! فجاءه به ، فغسل التحاويل وقطعه ، وودع أبا القاسم توديع مفارق ، فلما كان في ذلك اليوم العصر بعينه مات كما قال »(١) .

كوركيس عواد

(١) نشوار المحاضرة للتنوخي (١ : ٢٦٩ طبعة مرجليوث) .

(١) الدرر الكامنة (٣ : ٣٩) .

(٢) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (ص ٣٠٤) .

أثر الثقافة العربية

في الثقافة المصرية الحديثة

— ١ —

استعمل الكتاب المعاصرون كلمة «ثقافة» ترجمة لكلمة Culture . وهذه الكلمة تدل في أصل معناها على زرع الأرض واستغلالها وما يتصل بهذا ، وتقال مجازاً في تحصيل الإنسان من علم وفن فيقال مثلا :

Culture des lettres, des sciences, des beaux arts,

وتقال أيضاً في معنى التعليم والتربية ، Instruction, education .

وتقال أحياناً في معنى الحضارة كما لا تستعمل في اللغة الألمانية .

وقد أراد كتاب الترك في هذا العصر أن يترجموا الكلمة Culture بكلمة تقاربها في أصل معناها ، ويمكن أن تسايرها في معانيها الأخرى ، فاختاروا من اللغة العربية كلمة «حرث» ، ومسوغ هذا أن الحرث يقال في العربية لكل ما يكسبه الإنسان . وفي القرآن : «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب» .

وكلمة «ثقافة» لها معنى حسيّ هو تقويم المعوجّ من الرماح والقسيّ ونحوها ، والثقاف الآلة التي يقوّم بها . وقد استعملت في التقويم النفسي بالتعليم والتأديب ، فقيل ثقفه أي أدّبه أو هذّبه ، وقيل ثقف الإنسان ثقفاً وثقف ثقافة صار حاذقاً فطناً ، وقيل رجل ثقِف وثقُف ؛ وكذلك قيل ثقف الشيء ثقفاً وثقافة أي حذقه ، فالثقافة حذق الشيء وإتقانه ، وهي أيضاً الفطنة والخبرة من طول ممارسة العمل .

وقد جاء في فاتحة كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي :

«وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات . منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان» .

فإذا استعملنا الثقافة في كل ما يثقفه الإنسان كانت قريبة من استعمالها القديم ، وقريبة من كلمة Culture التي تقابل بها .

إن نكن قد بيّنا معنى الكلمة تبييناً يعين على تحديد موضوعنا ، فقد بقي أن نكمل تحديد الموضوع ببيان ما نقصد من هذه العبارة : «الثقافة العربية» . أنريد ما ثقفه العرب ، وما ثقفوه في مواطنهم الأولى ، والمواطن التي انتشروا فيها بين نجد إيران وبحر الظلمات ، أم نريد كل ما حوته اللغة العربية في ديار العرب وغيرها ؟

الحق أنا لسنا في حاجة إلى أن نتكلم فيما أنشأه العرب الخلّص ، وما أنشأه المستعربون ، أو نبحث عما [illegible] في البلاد العربية ، وما ألفه غير العرب والعرب في البلاد [illegible] . ليس هذا موضوعنا ولا يحتاج [illegible] والحق أن الثقافة التي عرفتها البلاد العربية في العصور الإسلامية هي كل الثقافة التي دوّنت باللغة العربية ، ولا تتعدد هذه الثقافة بأن كتاباً في موضوع من موضوعاتها كتب في بلد عربي وآخر كتب في بلد أعجمي ، أو أن مؤلفي بعض الكتب من العرب ومؤلفي بعضها ليسوا من العرب . أيمكن أن نفرق في معاجم العربية بين أساس البلاغة الذي ألفه الزمخشري التركي ، وبين القاموس المحيط الذي ألفه الفيروزابادي العربي أصلا ، ولسان العرب الذي ألفه ابن منظور المصري الإفريقي الأنصاري الخزرجي ، وكتاب معيار اللغة الذي ألفه محمد علي الشيرازي ؟

قد نظرت نظرة إلى كتب الأدب في مكتبتي وأنا أفكر في هذا الموضوع ، فرأيت كتاب الأمالي لأبي علي القالي وهو أديب أصله من قاليقلا رحل منها إلى العراق وأقام ببغداد ، ثم رحل إلى الأندلس ؛ ورأيت بجانبه شرحه

الوزير أبي عبيد البكري الأندلسي العربي ، فكتاب البيان والتبيين للجاحظ البصري العربي ، فكتاب الأوراق لأبي بكر الصولي التركي الأصل ، وكان آباؤه في جرجان ؛ فكتاب بلوغ الأرب للآلوسي البغدادي . فهذه كتب خمسة وقع عليها النظر اتفاقا ، منها ما ألف في القرن الثالث الهجري ، ومنها ما ألف في عصرنا ، ومنها ما ألف في البصرة وبغداد ، ومنها ما ألف في الأندلس ، ومنها ما ألفه عربي قح ، ومنها ما ألفه مستعرب . ولكنها كتب ثقافة واحدة متصلة الموضوع . ولو ألقيت هذه النظرة على كتب الفقه أو كتب التاريخ وأخذت منها خمسة كتب كذلك لوجدت كتبا متفقة على موضوع واحد ، مع اختلاف أعصار المؤلفين وأقطارهم وأجناسهم ، ولا أجد اسما جامعا لهذا كله إلا الثقافة العربية ؛ فإن شئت فقل ثقافة اللغة العربية ؛ وإن شئت فقل ثقافة العرب انتسب إليهم أو شاركهم فيها غيرهم ، فلن تخطئ .

— ٢ —

ولكني لا أتكلم عن الثقافة العربية [illegible] العربية كلها ، بل أفرق بين جنس منها وجنس . ذلكم أن من ثقافات البشر ما يأبى القومية ، ويأبى الانتساب إلى الأقوام والأوطان ؛ فإذا قلت الثقافة العربية أو الثقافة الفارسية أو الثقافة الفرنسية ، بعُد الفكر عن هذا الجنس العام من المعارف البشرية واتجه إلى جنس آخر . ذلكم أن المعارف أو الثقافة قسمان أو جنسان : قسم يقوم على قوانين الطبيعة الخارجة عن النفس الإنسانية كالعلوم الطبيعية والرياضية ؛ وهذه لا تختلف باختلاف الأقوام أو الأوطان . فإذا أدركت الأمم قانونا من قوانين الطبيعة لم يختلف هذا القانون والعلوم القائمة عليه في أمة وأخرى . فلا يقال الكيمياء الفرنسية والكيمياء الإنكليزية ، أو الرياضة العربية والرياضة الفارسية ، إلا بمقدار ما تختلف الأمم في إدراك القوانين والعجز عن إدراكها أو في الإصابة والغلط إلى أن يأخذ العاجز من المدرك والمخطئ من المصيب ؛ وأما القدر الذي يناله إدراك الأمم فلا يختلف باختلافها . وهذا الجنس من المعارف يمكن نقله من أمة إلى أخرى ويتيسر أن ينقل .

والقسم الثاني من ثقافة الناس أو معارفهم يتصل بالأنفس والعواطف والأذواق ، ويختلف باختلاف الأقوام والأوطان والعصور ، ويعسر نقله من أمة إلى أخرى إن لم يتعذر ؛ وذلكم الآداب والفنون والقوانين والتواريخ ونحوها ، وهي التي تنسب إلى الأقوام والبلدان وتختلف باختلافها .

فإذا قلنا الثقافة العربية فينبغي أن يكون كلامنا في هذا الضرب من الثقافة الذي يقبل الانتساب إلى العرب أو لغة العرب ، ويقبل الاختلاف باختلاف الأمم . ويؤيد هذا التخصيص أن الثقافة لا تخلو من معنى التهذيب والتأديب ، وما يكون بالآداب والأخلاق والأمور النفسية لا بالعلوم الطبيعية .

[illegible] الثقافة العربية التي نجعلها موضوع حديثنا ، [illegible] مصر الحديثة ؟ هي في جملتها الأدب والدين والتاريخ والقانون وما يتصل بها . وأرجو ألا أكون قد أمللت بهذا التمهيد الطويل ، فما وجدت عنه منصرفا ولا رأيت عنه بدا في تحديد موضوعنا .

— ٣ —

الأدب :

الأدب الذي نقرؤه وندرسه ونحفظه ، ونعتز به ، ونمتع به نفوسنا ، وننشئ به أولادنا ونربي به العاطفة والخيال والخلق ، والذي نجد مكارمه مثلا ، ومثالبه سبة ، والذي نأنس به ونسكن إليه ، ونتفجع بجده ونلهو بهزله ؛ الأدب الذي نعرف منشئه والذي نتمثل به في سرائنا وضرائنا ، ونتعرف أمثاله ونحكيه ونحتذيه وكأنا نعاشر أشخاصه ونشهد وقائعه ، هو الأدب العربي لا محالة .

ما زال حوادث الأدب العربي في الجاهلية والإسلام موضع عنايتنا نعرفها ونشيد بها. وما زال شعر زهير وعنترة ولبيد وأوس والحطيئة وجرير والفرزدق والأخطل وذي الرمة والكميت والطرماح، وابن أبي ربيعة، وبشار وأبي نواس، وابن الوليد وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري، والرضي والأبيوردي، والأرجاني والغزي وابن هانئ وابن عمار وابن خفاجة وابن حمديس ومن عاصرهم ولحق بهم من الشعراء، لا يزال شعرهم غذاء المتأدب ومتعة الأديب في مصر، ومَدَدًا لشعرائنا لا يغيض.

وما زال الجاحظ، والبديع، والخوارزمي، وأبو حيان التوحيدي، والصابي، وابن الأثير، وابن زيدون، وابن شهيد، وابن خلدون مثلا ومادة ومتعة لمتأدبينا وكتابنا.

ولا زال المصريون يطمحون إلى المثل العالية والأخلاق الكريمة التي أشاد بها الأدب العربي. وما زال [illegible] الشجاعة والإقدام والمروءة والإباء [illegible] من شعر الجاهليين والإسلاميين، ومن الشعر الحماسي الذي فاض في الأجيال العربية فيضا من عنترة إلى المتنبي وأبي فراس، إلى البارودي وشوقي.

وما زالت الفلوات والأودية والمياه والجبال التي تغنى بها الشعراء القدماء معروفة محفوظة في نفوسنا — ولا يزال الشجر والحيوان وما اتصل بهما من وصف ولهو وصيد ماثلة في خيالنا، ولا تزال منابت الشيح والقيصوم والضال والسلم، ورياض العراق وجنات الشام وغابات الأندلس، وحدائق مصر، كما وصفها الشعراء والكتاب، مصورة بيننا نكاد نشهد جمالها ونشم عبيرها، ونتفيأ ظلالها ونرد مياهها.

والأدب العامي مشتق في جملته من هذا الأدب وموضوعه: قصص عنترة وسيف اليزن والهلالية مثلا تملأ حوادثها نفوس العامة، ويستولي سلطانها على قلوبهم، ويعيشون بها حتى إنهم يقتسمون شيعا في الأخبار إلى هذا البطل أو ذاك. وكثيرا ما يتمثل العامة أخلاق هؤلاء الأبطال، ويتمثلون بأقوالهم.

ثم الأدب الذي ينشئه الشعراء والكتاب المصريون في عصرنا هذا مطبوع على غرار الأدب العربي، فهو الأدب العربي في أحد عصوره وأوطانه. هو الأدب العربي في مفرداته وتركيباته ومجازاته وكناياته وتشبيهاته وخيالاته وموضوعاته، وهو الأدب العربي في قوافيه وأوزانه؛ والذي يختلفه عصرنا من الألفاظ أو المجازات والموضوعات هو تطور لهذا الأدب، أو زيادة عليه كما تتطور آداب الأمم وتكمل، وتصعد في سلّم الكمال درجات؛ ولكن الدرجة السفلى والدرجة العليا وما بينهما درجات متوالية في سلّم واحد.

والذي رأينا من الخارج من صور الحضارة الغربية فهو يمد أدبنا العربي، ومادة لصناعته كالصبغ المصور أو [illegible] أو [illegible] للشعر. وما انفصل عن الأدب العربي [illegible] يقتصر على فئة قليلة لا يعد من أدب الأمة ولا يعد مقتبسا من آدابها؛ فإنما يعد الأدب أدب أمة حين يعم المتأدبين فيها، ويعبر عن جمهرة مواطنيها وأفكارها. كما أن معرفة طائفة من الأمة أدب أمة أخرى، واستمدادهم منه لا يجعل أدب تلك الأمة أدبا لأمتهم.

— ٤ —

وأما الدين الإسلامي فلست أبحث هنا في أنه من الثقافة العربية أو ليس منها، بل أحب أن أنحو به عن اللبس الذي يحده بحدود العصبيات، وهو أوسع من الحدود، وأسمى من نزعات الأقوام؛ ولكني أقول إن هذا الدين الإنساني العام قد قدر له البيان العربي فكان وسيلة إلى تمكين هذا البيان في نفوس المسلمين ولاسيما العرب منهم. ولست في حاجة إلى أن أبين أثر القرآن والأحاديث وما اشتق منهما واتفق أثرها من مواعظ وحكم وخطب،

وما فاضت به منابر مصر في كل مدينة وقرية من البيان العربي في كل جمعة ، فكان حياة مستمرة وتجديدا دائما للأدب العربي في النفوس وعلى الألسنة .

ولست في حاجة إلى أن أبين ما كان لتفسير القرآن وشرح الحديث في توسعة البيان العربي والإبانة عن دقائقه ، ولا ما اشتملت عليه كتب التفسير والحديث من شواهد الأدب العربي وصوره . ونحن نعلم ما للتفسير والحديث من مكانة في الجماعات الإسلامية ، وما لهما من اتصال بالنفوس وتأثير فيها مهما أصاب الأدب من تغير ، والفتور من ضعف بين جمهرة العلماء والمتعلمين . ولم يكن حظ الأمة المصرية من الدين دون حظ الأمم الأخرى ، فكان لها من الأدب المتصل به نصيب موفور .

— ٥ —

القانون :

وأما القانون فهو صورة واضحة [illegible] من صور الجماعة تبين عن مبلغ إدراك الأمم للحقوق والواجبات ، وقواعد العدل ، والوسائل الحسنى التي ينتظم بها أمر الجماعة ، وتنظم بها علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالجماعات . وبعض هذه القوانين ينفذه السلطان قهرا مثل القانون المدني والقانون الجنائي ، ومنها ما يترك لحكم الجماعة واستحسانها واستهجانها مثل قانون الأخلاق .

والفقه الإسلامي أوسع وأشمل ؛ فهو يشمل قوانين الحكومة أو قوانين السلطان وقوانين الدول ، ويشمل قانون الأخلاق ، ويشمل غيرها كقوانين العبادات . وهو متصل بالإنسان منذ يخلق جنينا إلى أن يموت وتقسم تركته ؛ يصاحب الإنسان في بيته بين أسرته وعياله ، وفي الطريق ، وفي السوق ، وفي الزراعة ، وفي كل صلة بينه وبين الجماعة التي يعيش فيها أو فرد من أفرادها ؛ هو في نظافة جسمه ولباسه ، وفي طعامه وشرابه ، وفي عبادته وتجارته وسعيه للرزق ، وفي سلمه وحربه ، وخصومته وصلحه ، يبتدئ بالفقه . الخ . فهو صور كثيرة مفصلة من صور الثقافة المصرية .

وإن قيل إن الفقه يرجع إلى الإسلام ، وقد قلت إني لا أريد حدة بحدود الأمم ، فلا مراء أن الفقه في قواعده يرجع إلى نصوص القرآن والحديث وإلى ما عرف من مقاصد الإسلام ، ولكنه في استنباط أحكامه وتسميتها وترتيبها وتفصيلها وشرحها وتطبيقها على الأحداث ، ضرب من الثقافة العربية يمثل جانبا عظيما منها في عصورها المختلفة . والعرب بدأوا هذا العمل وداموا عليه وشاركهم غيرهم من المسلمين في السير على هذا المنهاج . وقد فرغنا من القول إنه لا يمكن التفريق بين ما أنشأ العرب وغير العرب ، وبين ما ألف في البلاد العربية وما ألف في غيرها ، من ضروب الثقافة التي ساغ لنا أن نسميها الثقافة العربية .

ولا يقتضي قولنا ما نراه اليوم في مصر من قوانين مأخوذة من القوانين الأوربية ، مستندة في أصولها وتفسيرها إلى الشرائع الأجنبية ، ويتصل بها نظم القضاء وإنفاذ الأحكام [illegible] . فأما الأمور الشكلية من [illegible] وما يتصل بها إلى أن يقضى فيها فليست ذات خطر ، ولا ذات أثر في ثقافة الأمة . وإنما يعنينا قواعد القوانين وأصولها التي تقوم عليها ، على تبدل نصوصها ، واختلاف جزئياتها . وهذه الأصول بعضها موافق للأصول المعروفة في الفقه فلا تبدل شيئا في الثقافة العربية ؛ والمخالف منها لقواعد الفقه لم يحل في نفس الأمة محل هذه القواعد ، بل لا تزال قواعد الفقه أكثر اتصالا بنفس الجماعة ، وأكبر تأثيرا فيها . ولا يزال جمهور الناس يعرفون أحكام الشرع ليلائموا بينها وبين أعمالهم مختارين محتسبين . يسألون عن حكم الشرع في بيع أو شركة أو شرط في عقد ، أو وصية المريض ، لتطمئن به نفوسهم ، وتسكن إليه قلوبهم ؛ وهم لا يسألون عن حكم القانون إلا حين القاضي ليقبلوه طوعا أو كرها ؛ ولا يتحرجون أن يتخلصوا من أحكامه بأية وسيلة ، لأنهم يعدونه غريبا عنهم ، ليس له في نفوسهم من سلطان إلا سلطان القوة

وميزة أخرى أن الفقه يعرفه جمهور الناس قديماً ؛ سواء فيهم من يعنى بالقوانين ومن لا يعنى . فثقافته أوسع وأكثر تغلغلا فى الجماعات ، وأكثر أثراً فى أنفسها ، يخالط مشاعرها ويقوِّم سيرها ، ويؤثر فى أعمالها ؛ فى حين تبقى القوانين الأخرى بعيدة منهم إلا أن تدخلها عليهم الضرورة أو القوة .

لا أنكر أن فى مصر جماعة تفقهوا القوانين الوضعية ، وآمنوا بها ، وبلغت من نفوسهم وإجلالهم مبلغاً بعيداً ، ولكنى أتكلم عن الأمة كلها ؛ وهى فى جملتها أقرب إلى الفقه ، وأعرف به ، وأكثر إجلالا له وطاعة . وقلّ أن تخلو قرية أو محلة فى مصر من جماعة تعرف الفقه أو كثيراً من مسائله .

— ٦ —

التاريخ :

وأما التاريخ فيدخل فى الثقافة العربية من جهتين : الأولى من حيث هو معارف وصور [illegible] دخلت فى الثقافة العربية ، وشاعت فى أدب العرب ومحاضراتهم [illegible] وأمثالهم ، ويستوى فى هذا تاريخ الأمة العربية وتاريخ غيرها ؛ فما كتبه مؤرخو العرب عن العرب والفرس واليونان والرومان وغيرهم ، وشاع فى مؤلفاتهم ، وانتشر بين جمهور علمائهم وأدبائهم ، يعد ثقافة عربية ، وهو ضرب من الأدب العربى ؛ فسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن مسكويه ، والذهبى ، والمقريزى ، وابن خلدون ، وإكليل الهمدانى ، وتاريخ بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة ، وتراجم ابن خلكان واليتيمة والذخيرة ؛ كل هؤلاء وأمثالها دخلت فى الثقافة العربية ، وهى اليوم داخلة فى الثقافة المصرية مؤثرة فيها .

ويدخل التاريخ فى الثقافة العربية من جهة ثانية خاصة ، هى تسجيل خطوات الأمة العربية ، وتخليد مفاخرها ومآثرها ، وتدوين عبرها ومُثلاتها ، والإشادة بالعظماء من رجالها ونسائها ، وأنه يصل بين سيرها على مر الزمان ويجريها فى مجرى واحد فيمد عمرها على الأجيال ، ولا يقيسه بأعمار الرجال ، وأنه يمرّنها نفسها ، ويذكّرها ماضيها ، ويدعوها إلى الاحتفاظ بمجدها ، والاعتزاز بمفاخرها ، ويهيب بها إلى الجهاد والدأب ، ويدعوها إلى المرة دعوة لا تنقطع ، ويناديها إلى المجد نداء لا يخفت .

والتاريخ العربى لا يزال داعياً لنا ، موحياً إلينا ، عاملا فينا ، مقوِّياً همتنا ، مثيراً لنخوتنا ، محيياً لآمالنا .

نحن نقرأ وندرس تاريخ العرب قبل الإسلام بين الحضارة والبداوة ، نقرأ تاريخ دول اليمن أو تاريخ المناذرة والغساسنة ، وتاريخ مكة والمدينة ، ونقرأ تاريخ القبائل البادية وأيامها ومفاخرها ، وتقلبها فى مسارحها من أرض الجزيرة وساحات الزمان ، فلا نشعر أننا نقرأ تاريخ غيرنا ، بل نشعر بآثار العرب الجاهليين ، ومآثر أبطالهم .

[illegible] عن أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح ومعاوية على أنهم عظماؤنا ، ويقرأ عن عبد الملك [illegible] والوليد وهشام لأنهم من خلفائنا أو ملوكنا ، [illegible] المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم [illegible] عبد الرحمن الناصر الأموى ، [illegible] الأندلسى ، وسيف الدولة الحمدانى ، وأمثال هؤلاء ، ولا يشعر المصرى إلا أنه يقرأ سير سلفه ، وكبراء أمته ، وأبطال تاريخه . وسيرة العرب الأولين هى مثلنا الأعلى فى العدل والإحسان ، وفى الشجاعة والإخلاص ، وغيرها من مكارم الأخلاق . وكم لنا من قدوة بين العظماء والأدباء والصالحين نقرأ سيرهم ونحتذى أفعالهم .

فالتاريخ العربى محيط بالبيئة المصرية ، مستقر فى نفوس المصريين ، مؤثر فيهم تأثير كل تاريخ مجيد فى نفوس الطامحين من أمته .

— ٧ —

وبعد فلعل سؤالا يتردد فى النفوس : ألم يكن لمصر نصيب فى هذه الثقافة ؟ ولماذا لا يعد ما أنشأه المصريون من علم وأدب ثقافة مصرية ؟

لا أجحد نصيب مصر فى هـذه الثقافة العربية ؛ فلمصر فقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها وكتابها ومؤرخوها .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

نعمة الولد ! — الزية والنعمة ! — مصرية ! [illegible] — أسواق الرقيق ! — النهضة النسائية !

نعمة الولد !

رجعتُ بالصغيرة من « عيادة الطبيب الكبير » ، أقودها فى يدى مرة وأحملها على ذراعى أخرى ، وبين عينىّ صورة ذلك « الطبيب الكبير » وهو متجهّماً يكاد يغشى أصابعه فى عنق مريضه ، فلولا « ذلة المرض » لأعطته المريضُ لحظم أنفه !

... وجعلتُ أنظر إلى الصغيرة ولم يزل فى عينيها أثر الرعب والفزع من عبوسه وغلظته ، فمسّ الحزنُ قلبى ... بارك الله ولأبيك أيتها الصغيرة المزروعة !

وقد ألف المصريون أجمع الكتب [illegible] بعد غارات التتار على العالم الإسلامى ! [illegible] لابن منظور المصرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، ونهاية الأرب للنويرى ! وحسبنا أمثال المقريزى والسيوطى .

لاريب أن لمصر نصيباً عظيماً من هذه الثقافة ، ولكنى لا أجعله ثقافة مصرية مستقلة ، فكل فرع من هذه الثقافة حين عنايته [illegible] الباحث يصله حتماً بالأصل العام . فإذا أخذت لسان العرب مثلا وصلك بكل معاجم العرب ، وإذا أخذت صبح الأعشى وصلك بالموضوعات التى تناولها فى كل البلاد العربية . تلك ثقافة مصرية ولكنها جزء من الثقافة العامة التى أسميناها الثقافة العربية .

ثم أختم الكلام بجواب هذا السؤال : ما أثر الحضارة الأوربية المحيطة بنا فى ثقافة مصر الحديثة ؟ لا شك أن الحضارة الحديثة أثراً فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفكرية من حضارتنا ، ولكن الثقافة الغالبة العامة السائدة هى الثقافة العربية .

عبد الوهاب عزام

وسألتُ نفسى : أليس عجباً أن يكون مثله طبيباً ، طبيبَ أطفال ، ولا شىء يعالج الطفلَ ما تعالجه كلمةُ عطف أو ابتسامةُ حنان ؟ ...

وقال لى صديق : هوّن عليك ! ويحك ، ثم أن ذلك الطبيب ليس أرفق مما رأيتَ بين خاصته وأهله ، إنها طبيعته ! وثمة عجيبة أخرى : إن الله لم يرزقه « نعمة الولد » وإنه لأشهر أطباء الأطفال فى مصر !

« نعمة الولد » ! يا عجبا ! ماذا يقول صديقى ؟ أهو يزعم الولد نعمة ؟

وحضرتْنى أحزانى ، وادّكرتُنى كلمة الصديق بما ألقى كل يوم فى أبنائى ، وأبناء من شقوة بالولد ! أيزعمها صديقى نعمة !

كم ليلة قضيت أقلب أجفانى إلى الصباح بين جدران [illegible] من شقوة بالولد !

[illegible] ، وهذه الطفلة ، وهذا الصغير : لستكن [illegible] الناس أبداً ، ولكنى مشغل [illegible] ، ولكنى مشتكى دوماً ، وإنا [illegible] أين هؤلاء النعمة ؟! ...

وقطب صديقى جبينه متنكراً وقال : أتنكر ؟ ... إنهم لنعمة وإن حِيل لك غيرها ، وإلا كنت يوم ساهراً أبداً ، عاجزاً أبداً ، بشقاً أبداً ... !

والصمتُ ولم أجب ؛ كان بين قلبى وفكرى صراع لا ينتهى بى إلى رأى ، ولا يقوم لى بحجة ؛ كان قلبى يدارض إلى رأى ويستمد عناصره من بعض ما يزخر به من معانى الحنان والعطف والأبوة ومتعة الماضى ما كاد أعترف ، ولكن الفكر لا يلبث أن يجذبنى إلى بعض ما أحس من صور الألم والحرمان ووخزات الذكرى فيحملنى على العصيان والإنكار والتردد .

وعاد صديقى يسألنى : أتنكر ؟ ...

وآثرتُ أن أصمت وفى نفسى معانيها ، ولكن صديقى لم يصمت ، وقال : فماذا ترى فى قول الله : « المال والبنون

زينة الحياة الدنيا » ؟ ألست ذا مال فيما أعرف وإن كنت ذا بنين ، فإنك تملك نصف زينتها ؛ أم تراك تنصرف عن الإنكار ؟

قلت : آمنتُ بالله ! فمن أين لك أن يكون أحد الشيئين نصفَ المجموع ؟ ... إنه قارورة العطر زجاجةٌ وسائلٌ تحتويه الزجاجة ، أفتزعم أنها قارورة عطر وإن خلَتْ من سائلها ؟ ...

« المال والبنون زينة » نعم وصدق الله ؛ أفتدرى بنين بلا مال نصفَ الزينة أم بلاءٌ كما لا ماحقاً يجنى بالأب والابن جميعاً ! ... ولا تحسبنّي أشكو الفقر وإن لم أكن ذا مال ، ولكني أصحح قاعدة !

الزينة والنعمة !

... ثم أين معنى « الزينة » من معنى « النعمة » ؟ إنك تراني أنكر عليك أن تقول « نعمة الولد » ولكني أرى أنا مصابا وشقوة ماحقة وبلاءً أعظم ؛ أفتراني أنكر بذلك أن الأبوة زينة وإن [illegible] لا وصدق الله ؛ إنما « النعمة » ما يحسه [illegible] النفس سببا من أسباب السعادة ، والفرق [illegible] « الزينة » ما يتراءى منك للناس سبباً من أسباب الجمال والفتنة ؛ فالنعمة هي إحساس النفس في باطنها بما تملك من أسباب الرضا والسعادة ، أما الزينة فهي المظهر الذي يحسه غيرك فيك أكثر مما تحسه أنت في نفسك ؛ ولقد يكون وراء ذلك المظهر الجميل في أعين الناس قُبح ودمامة وشر ... ؛ ذلك فرقٌ ما بين النعمة والزينة !

... وإنما يقوم أساس الاستمتاع بالزينة على المباهاة والفخر ومحاولة اكتساب إعجاب الناس ورضاهم ؛ وماذا يعود عليّ أنا من إعجاب الناس ورضاهم !

... على حين تقدَّر قيمة النعمة في مقدار الشعور بها وما تُيسِّر لصاحبها من أسباب السعادة في نفسه ؛ فالنعمة هي متاعُ صاحبها ، والزينة هي متاع غيره ...

هذه الزهرة في البستان هي زينته في عين كل من تنظر ؛ فعلى له عطرٌ ولونٌ ومنظر ؛ فماذا هي لنفسها ؟

وهذه الصبغة الحمراء في شفتي تلك الفتاة الجميلة ، ما أحلاها منظراً في مرآة زينتها وما أمرَّ مذاقها !

كذلك كل زينات الحياة !

معذرة يا بني !

آه يا بني ! لكأني بكم وقد كبرتم فرجعتم إلى ماضي الأيام تنبشونه لتعرفوا ما كان شأنكم وشأن أبيكم في ذلك الماضي الأليم ؛ فإذا رجعتم إلى هذه الصفحات يوماً فلا يؤلمنكم ما تقرءون ، أو يحملكم على سوء الظن بأبيكم ؛ ليس بي في الساعة أن أنكر مكانكم من نفسي وإنكم لتأخذون كل ما أجد من فراغ في نفسي ، ولكني أنكر زماني !

وإني لأحس الساعة [illegible] أمسُ الساعة وأنظر إلى [illegible] الصغيرة موشَّحة في فراشها أطول أن أستطيع [illegible] ما تراءى لكم في الحلم من صور تتراءى لي في [illegible] مبتسمة ؛ فماذا أكتب ؟

[illegible] من حال : ساهر أبداً ، عاجز [illegible] أنتم مني ؟ أتدرون أوفى لكم حظكم من الحنان والحب وحسن الرعاية على مقدار ما أوفى النفس من حقها بالتأوه والشكوى ؟

... ليتني أدري ... ، ولكنكم ستدرون يوماً وتعذرون أباكم !

أسواق الرقيق !

قرأت في العدد ٣٣٠ من آخر ساعة ما يأتي :

« ... كنت في زيارة السيدة هدى هانم شعراوي ، فقالت لي إنها لا توافق على إقامة الحفلات الساهرة في سبيل جمع التبرعات للمؤسسات الخيرية ... وإنه حرام أن يهدم تقاليدنا باسم فعل الخير ، وتختص الخمور باسم العطف على المساكين ، وتشرب الويسكي في صحة التقوى واتباع أوامر الله ...

قال : « وهنا قالت السيدة الجليلة حرم [illegible] باشا إنها

حاولت أن تقنع جمعية الهلال الأحمر بهذا الرأي، ولكن الجمعية استطاعت إقناعها بأن تسعة وتسعين في المائة ممن يذهبون إلى الحفلات الخيرية لا يذهبون لوجه الله ......

ثم قال: «إنها مأساة... ولكنها مأساة محدودة العاقبة ما دامت تنتهي بمساعدة المرضى والفقراء!»

انتهى كلام محرر آخر ساعة، واعجب أنت للمأساة كيف تكون محدودة العاقبة! ثم وازن بين هدم التقاليد واحتضان الخصور، وشرب الويسكي — وبين مساعدة المرضى والفقراء؛ فإما أن يموت المرضى ويجوع الفقراء، وإما أن تنهدم التقاليد، وتُحتضن الخصور، ويُشرب الويسكي ...!

أليست هذه هي القضية بطرفيها كما عرضها محرر آخر ساعة؟

وليس لي أن أعقب بشيء على ما قال، فلعله يعرف أن في الأمة طائفة من بني آدم يرون [illegible] الفقر خيراً وأفضل وأولى [illegible] التقاليد [illegible] الشرف والعفة والاستقامة؛ [illegible] بأساً في احتمال المرض وهوان الشرف في سبيل لقمة عيش وشربة [illegible] جرعة!؟

ويرى المحرر أن تسعة وتسعين في المائة ممن يذهبون إلى الحفلات الخيرية لا يذهبون لوجه الله! هكذا قالت له سيدة... فلماذا يذهبون يا سيداتي وسادتي؟... للرقص والمخاصرة وانتهاب اللذات بثمنها؟ فما تكون هذه الحفلات إن كان تسعة وتسعون من الذاهبين إليها يقصدون ذلك، وتسع وتسعون من الذاهبات إليها يبغين ذلك؟ ما تكون هذه الحفلات في رأي أصحابها و[illegible] لا في رأينا نحن الرجعيين؟ هل هي إلا «أسواق» يُباع فيها كل ما يُباع بثمنه، ويُبذل فيها ما يُبذل بأجرته، كأسواق أخرى فرضت الحكومة عليها نطاقاً وأخضعتها للنظام العام!

إن القانون العام يحرّم تجارة الرقيق، فكيف جاز أن تُقام هذه الأسواق؟

النهضة النسائية!

وإنه ليدعو إلى التأمل والاعتبار أن يكون ذلك هو رأي السيدة هدى شعراوي؛ والسيدة هدى شعراوي هي زعيمة النهضة النسائية كما يسمّونها! فمن شاء أن يسأل عن هذه «النهضة النسائية» أين هي؟ فإنه لن يجد لها مظهراً غير هذه الأسواق؛ فأي تناقض بين القول والفعل أبلغ من هذا التناقض! وما ظنُّك بنهضة تنكر زعيمتها كل ما عرف من مظاهرها؟!

... ومنذ بضعة أسابيع قرأت في مجلة روز اليوسف حديثاً للسيدة الجليلة حرم المرحوم قاسم أمين بك تعيب فيه ما ترى وترى من حال الفتاة المصرية والمرأة المصرية، وتنكر أن يكون قاسم أمين قد قصد إلى شيء من هذه الحال التي انتهينا إليها في مجتمعنا النسائي...

[illegible] هذه السيدة الجليلة، كما قالت السيدة هدى [illegible] محرر آخر ساعة — فإن كانت [illegible] فهل يدل رأيهما إلا على معنى واحد، هو أن المرأة المصرية لم تبلغ بعد درجة النضج العقلي والخلقي التي تؤهلها لتفهم الدعوة إلى «النهضة النسائية»؟ وهل يدل إلا على أن الدعوة إلى «تحرير المرأة» التي دعاها قاسم أمين منذ أكثر من ثلث قرن؛ والدعوة إلى «النهضة النسائية» التي دعتها السيدة هدى شعراوي منذ عشرين سنة — قد سبقت كل منهما أوانها فاتجهت إلى غير ما كان ينبغي أن تتجه، وأدّت إلى الشر؟

أرأيت لو أن أحداً عمد إلى وليد لم يبلغ الفطام طوق المشي فأراد أن يحمله على المشي قبل أن يتهيأ له، فلم يكد يحمله على قدميه ويدعه حتى سقط هشيماً...؟

... تلك مثل المرأة المصرية والدعاة إلى نهضتها وتحريرها: لم يمهلوا لها إلا أن حملوها على قدم رخوة ثم قالوا لها سيري! فسقطت...!

«قاف»

النيـــل

[أغنية الدهر ، ونشيد الزمن]

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
واروِ ما تعرف عن أصل الوجود

شطك السحري فردوس الجنان — وصدى موجك همس الغاني
أي قدس قد حواه الشاطئان — راهب في بردة من أرجوان
عنده العلم بأسرار الزمان — غامض الحكمة مشكول البيان

فيه طيب من شذا الماضي شرود النفحات
يوقظ السر على النجوى فيشجي النبرات
يملأ القلب حنوناً بجلال الذكريات
فيه للشاعر وحي ... الخافقات
فيه للعابد لحن في تراتيل الصلاة
فيه لليائس نور في ...
فيه للعاشق سلوى من ...

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
واروِ ما تعرف عن أصل الوجود

شارد في السهل هيمان الخيال — رجعت شكواك أنات الموالي
وعلى شطيك أحلام الليالي — خفقات هاجها ذكرى الأوالي

بين روض من رياض الخلد عذب النهل
عاطر الريحان والزهر طروب السنبل
وارف الأغصان في الدوح صفيق الجدول
عاطر الأنسام كالحب غرود البلبل
عبق الفتنة في الحسن بنشوان الوصيل

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
واروِ ما تعرف عن أصل الوجود

منبع التاريخ والكون جديد — وسرى الدهر والدهر وليد
أين يا نيل من الماضي البعيد — عزة الأجيال والملك المشيد

قدسي أنت حتى ملأ الحكمة صدرك
وأنت بحر وحي عرف الأنباء سرك
خلف هذا الموج سر فمن عرف سرك
ووراء الليل فجر فمتى نشهد فجرك
طال هذا الدهر يا نيل فما أعظم صبرك
فمضى ختم الليل وانكشف لأمي الصبوة أمرك
هامت الحرة روحي وعدت تنشد فجرك

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
واروِ ما تعرف عن أصل الوجود

وأنا الحائر في ليل الزمان — دائم الفكرة مجروح الجنان
بالخيال ... من ظل الأماني — ذهبت روحي وعادت عن أماني

... الحكمة يا نيل ومن أشكو جراحي
... بالبيد مكسور الجناح
... والترتيل مذبوح الصداح
... جراحاتي ويطويها صباحي
من لأكباد المشتكاة بسلوات صحاح

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
واروِ ما تعرف عن أصل الوجود

عاود الشوق لليل داجن — ونشيد مجروح لحظ الشادن
فاروِ يا نيل لنا الأكل وعن — سحر (ممفيس) أو طيب الكاهن

طيبة دون طيبات الهوى خضراء العيون
لحظها الساحر وكم في اللحظ من دنيا الفتون
آيت الفتنة في الحسن فويل من سفيات الجفون
كم وجوه من عذارى النيل حوراء الكعاب
طار في الحسن من ريحانها ماء الشباب
سبيت بالسحر في الأحضان من تحت الحجاب
ودم المشتاق بالراحة عن لون الخضاب

إبليس يغنى

مما يؤاخذ به فريق من أدباء الجيل الصاعد ، ورابهم بأدبنا القديم ، وفرارهم من تذوقه وبحثه من خزائن الإهمال والنسيان ، لما يكلفهم من جهد فى البحث وإتقان البيان ؛ غير أن الغزاة والرجاء فى فريق آخر تطلعوا من أدب الغرب وأخذوا بالألباب من ثقافة الغرب ، وقد عزت عليهم تلك الغزاة على ميراثنا الغالى ، فعمدوا إلى بسطه وجلائه ، ولم يدعوا نبرة لرفع الحيف عنه ، وعرض ما اشتمل عليه من طرف باهرة وخواطر ملهمة . من هؤلاء الشباب الجامعين بين روعة التليد وجدة الحديث ، أديب دمشق هو الأستاذ صلاح الدين المنجد الذى شغف بالطاف فى آفاق بنى العباس ، وشاقه التحدث إلى الناس فيما كان لديهم من أفراح ومباهج فانتزع منها صوراً حية ، وعرضها عرضاً أنيقاً على طريقة الحوار فى فن التمثيل . وقد جمع هذه الصور فى كراسة أخرى وسماها «إبليس يغنى» ، ولا غرابة عليه فى هذا الاسم ! فإبليس زعيم [illegible] والمصلوح ! وقد غنى أبو الفتح [illegible] وأطرب ، وكان من غناء موضوعات [illegible] إبراهيم الموصلى مبتدع اللحون فى حوار له مسعف رشيق مع شيخ يصبو للغناء ، فيمنيه إبراهيم حتى يستنفد مجهوده ، ثم يأخذ الشيخ بالغناء ، فيتفشى صوته صداحاً أخاذاً يلعب بسامعه الذى كان يهتز طرباً وعجباً ؛ ثم ينصرف بعد هنيهة إلى ممثل عنيف حول الفنون والعجوز ، ويلوذ بالشيخ يحتكى فيبحث عنه أهل الدار فلا يعثرون له على أثر ، وإذا هو إبليس يغنى ... وهكذا يجد القارئ فى كتاب المنجد متعة تمثيلية خلع عليها صاحبها من خياله وذوقه ما زاد فى بهجتها حبها إلى المطالعين ، وجعلهم يعطفون على إبليس . وقد دفع بغته عن قتال إبليس صفحات القرون التى صرخت وراءه باللعنة والويل من فساده ووسواسه .

الكتاب كما ترى تمثيلى الأسلوب ، سابق أوان وجوده فى بلاد الشام ، إذ ليس فيها فن للتمثيل ولا مسرح أو معهد ، ولقد حظى المصريون بهذه المباهج والطرائف منذ عهد بعيد ، وعرفوا عنها [illegible] وصف وعى ، وبيزها [illegible] والرجال وأعلامها . ولئن لم يجد كتاب المنجد مسرحاً [illegible] فحسبه غبطة أن تحل هذه [illegible] الشدور والخيال ومنازل النفوس [illegible] فنية حرة يبدو عليها الصقل [illegible] الدين المنجد تهنئة مقدرة لجهده [illegible] منشئه فى غدته .

رزق الله كيني

زهرةٌ أو دُرّةٌ زفّتْ إلى صدرِ الشبابِ

يا أخا الدهرِ ويا رمزَ الخلودِ

هاتِ ما شاهدتَ من ماضى العهودِ

واروِ ما تعرف من أصلِ الوجودِ

جمعتْ للوادى ثوبَ محبٍّ — زورقَ الخلدِ ومرجَ الشعبِ

وروى صدرَك نيلُ النسبِ — عزَّ آمونَ ومجدَ العربِ

يومَ كان الشرقُ فى التاريخِ مرفوعَ الجبينْ

ومنارَ العلمِ فى الدنيا وعرابَ القرونْ

راسخَ العزّةِ والمُلْكِ على خُلْدٍ ودينْ

بين عدنانَ أو الأنباطِ فى مجدِ آمونْ

صفحةٌ يا نيلُ فى التاريخِ هاجتْ من شجونْ

يا أخا الدهرِ ويا رمزَ الخلودِ

هاتِ ما شاهدتَ من ماضى العهودِ

واروِ ما تعرف من أصلِ الوجودِ

لكَ يا نيلُ شبيهٌ فى الأبادِ — ذهبُ النيلِ فى يومِ الحصادِ

إنه الفلاحُ تمثالُ الجهادِ — عصبُ الشعبِ وشريانُ البلادِ

ثمرةٌ تُسقى ويحيا الناسُ منها فى صفاءْ

وورودٌ كلُّ عِرقٍ منه يجرى بالدماءْ

عرقُ الجبهةِ تحتَ الشمسِ مسلوبُ الرِّداءْ

كم بعثنا وهو راضٍ ما شكا مُرَّ الشقاءْ

ونشأنا وهو بالإعلالِ موفورُ الرجاءْ

ما بكاهُ الشعرُ يوماً بتراتيلِ الفداءْ

غيرَ أنّاتِ السواقى بين أشباحِ المساءْ

حسبُه يا نيلُ فالشكرانُ من نبلِ الوفاءْ

علي شرف الدين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين بمصر